جدل العروبة والفلسطنة

(نظرة من الداخل)

د. نبيل حيدري

تتميّز مرحلتنا الراهنة، بشكل لا يدع مجالاً للشك، بانحسار واسع، شامل وعميق، للفكر والممارسة المنبعثين من اعتبار الانتماء القومي العروبي معياراً اساسياً للنزاع مع اسرائيل. ولا يتوازى وعي هذا الانحسار، برأينا، مع مداه، بل مع عمق درجته. ولا يمكن القول، البتة، انه تمّ استيعاب مسبّبات هذا الانحسار الفعلية وآثاره، بل غالباً ما ترى الفكر العروبي المعاصر، على الرغم من الاحداث المعاشة، سلفياً بتمسكه بأفكار، بل بمفردات، الفكر القومي التقليدي، الذي استفرغ، على الارجح، معناه.

وان كان من مجال لتمييز مرحلتنا هذه، فهي، بين امور أخرى، اعطت مفهوماً جديداً لـ «العروبة»، قوامه الواقعية والاعتدال في صنع واتخاذ القرار السياسي، وفي التكيّف مع الامر الواقع. ففي جنوح «مصر السادات» نحو الصلح مع اسرائيل، في أواخر السبعينات، بتوقيعها اتفاقيتي كامب ديفيد، تحديد لطريق الواقعية في التعامل مع اسرائيل؛ واتباع منظمة التحرير الفلسطينية الواقعية نفسها، في أواخر الثمانينات، وإنْ من منظار مختلف، فتح الطريق لجميع العرب لاتخاذ قرارات في قمّة الدار البيضاء، عكست الواقع القائم، متجاوزة بذلك الايديولوجيات الفضفاضة التي راودت معشر العروبيين الذين تعهّدوا، في مؤتمر قمة عربي عقد في الخرطوم قبل اكثر من عقدين، بعدم اقدام العالم العربي على التفاوض، أو الاعتراف، أو العيش بسلام، مع اسرائيل.

بالمقابل، أخذت الكيانات السياسية العربية، تجنح، منذ فترة ليست بالقصيرة، نحو التمأسُس في اشكال متعددة، ليس اقلها اهمية تقاسم المصالح والادوار في تجمعات اقليمية صغيرة. فلبلدان الخليج العربي، التي تربطها هوية خليجية ذات تحديد جغرافي ـ سياسي واقتصادي مشترك، مجلسها. كما ان لكل بلدان المغرب العربي، ودول مجلس التعاون العربي الاربع، مجلسها هي الاخرى، فتتشابه التسميات في الاجمال، مشيرة الى رغبة صارت جسداً، في شعور بهوية وبانتماء تحوّل مؤسسة. هكذا حملت كل مؤسسة هوية خاصة بها، بينما تبحث الهويات المهدّدة في وجودها، او الساعية الى اثبات هذا الوجود، عن وسائل للتمأسس.

لقد غطى الدخان المتصاعد، جراء تنافس وتنافر هذه الهويات، على «مركزية» النزاع مع اسرائيل، بل اصبحت هذه «المركزية»، بفعل التمأسس، نوعاً من مقولة ايديولوجية في غير زمانها، سيّما ان بعض العرب، حكومات وشعوباً، ساكن والنزاع نفسه اكثر تأججاً. ويبدو ان هذا البعض اصيب،